في قداسة الكنيسة

للاب ارمند اودين ، احد كهنة رهبنة قلب يسوع الاقدس*

١ ما هي القداسة الواجب ان تمتاز بها كنيسة المسيح ؟ — ٢ هل توجد هذه القداسة ، في الكنائس المنفصلة عن الكثلكة ؟ — ٣ وجودها وسطوعها في الكثلكة . — ٤ ردّ الاعتراضات .

٣

وجود القداسة في الكثلكة

اول الشروط اللازمة لقداسة جماعة ، هو ان يكون فيها تعليم يسوع المسيح محفوظاً ، ليس على صفحات الكتب فحسب ، بل في العقول والقلوب ايضاً ؛ بحيث يكون مدروساً ومفهوماً جيداً ، وتكون قضاياه بمنزلة قواعد يُعمل بموجبها . فانظر ، ايها القارئ اللبيب ، الى الكنيسة الكاثوليكية واحكم هل هذا الشرط محقق فيها ام لا ؟ انظر ما بذله الاحبار الرومانيون ، منذ القديم الى ايامنا هذه ، من شديد العناية ليمنعوا كل تعليم باطل فاسد عن الانتشار بين المؤمنين . انظر كثرة معلمي اللاهوت ومفسري الاسفار المقدسة ، الذين وقفوا معظم حياتهم على استقصاء الحقائق المرجاة ، وتبيين نتائجها والمحاماة عن صحتها . انظر بأية همة ومواظبة يجتهد الخوارنة في تهذيب الصغار الديني ، وفي صيانة ايمان الكبار بما يلقونه عليهم من المواعظ والارشادات الروحية . انظر عدد المجلات الدينية التي جلّ غايتها تكميل ما احرزه القرّاء من معرفة الامور الالهية ، وتفنيد ما يسمعون او يخطر على بالهم من حجج الاعتراض والارتياب . هذا ما نراه جارياً في الكثلكة في ايامنا اكثر من ذي قبل ، مع ان مصباح العلم اللاهوتي لم ينطفئ قط في حضنها . فاي الجماعات المنفصلة تتجاسر على المقابلة بينها وبين الكثلكة من هذا القبيل ؟ وماذا يجوز ان نطلبه ، فوق ذلك ، لنقول : ان امنا الكنيسة الرومانية حفظت بتمام الامانة على وديعة التعليم الالهي ؟

---

* صحح عبارته . وعني بنشره الاب اسطفان فرحات اللبناني .

نتنقل هنا الى ذكر شيء مما تزدان وتفتخر به الكثلكة من جواهر الفضائل المتلألئة في سير قديسيها . فما اكثر هؤلاء عددًا ! وما اسمى درجة الكمال الأدبي التي بلغتها فيهم الطبيعة البشرية ! وما اعجب ما باشروا من الاعمال العظيمة التي تذهل كل من يتصفح التاريخ ، وتحمل كل انسان على الاقرار بها . ومن يستطيع ان يحصي الذين حبسوا انفسهم في الاديرة ليعيشوا هناك عيشة سماوية . والذين خصصوا حياتهم لاعمال المحبة والغيرة ، كمعالجة المرضى ، واسعاف المساكين ، وتربية الاحداث ، اولئك الذين يفنون قواهم في سبيل الخير ، افناء ملموساً . فماذا حملهم على تلك التضحية بذواتهم يا ترى ، الم يكن حب المسيح ؟ وماذا نقول عن بسالة المرسلين الذين يغادرون اوطانهم المحبوبة واهلهم الاعزاء ، ويتجهون الى اقطار مجهولة ، حيث لا يترقبون سوى حياة كلها اخطار واتعاب وعوز وشقاء ؛ وربما انتهى بهم الامر الى الموت تعذيباً . هذا ، على ان الامر لا يتوقف عند هذا الحدّ مع هؤلاء الابطال فحسب ، بل كثيرًا ما نرى مثله في الكهنة الذين لم يدعهم الله الى الاستشهاد في بلدان الوثنيين والمهجيين . فانهم يضحّون براحتهم وبكل غالٍ ونفيس لديهم في سبيل خدمة الدين الحقيقي ، دون ان يترقبوا عليها ادنى جزاء ، بل كثيرًا ما يغمط الناس نعمهم ، ويبادلونهم الخير بالشر ، ويوغرون عليهم الصدور ، ويقذفونهم بكلام الهزء والسخرية . اما هم فيحتملون ذلك بصبر جزيل ، عملًا بوصية السيد المسيح ، لاسمه السجود : « طوبى لكم اذا عيّروكم ، واضطهدوكم ، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة كاذبة . فحينئذٍ سروا وافرحوا . . . » هذا هو سلوك الاكليروس الكاثوليكي . وانه اليوم كما كان في الامس . فمن ينكر ان في هذا دليلًا جليًا على قداسة الكثلكة ؟

لقد اشرنا الى ما كان ، ولم يزل نصيباً لبعض الكهنة والمؤمنين ، من الاضطهاد . فيحسن بنا الّا نضرب صفحاً عما في ذلك من زيادة ايضاح واثبات لقداسة الكثلكة ، ولكونها هي كنيسة المسيح الحقيقية . لذلك نقول :

١ً ان يسوع المسيح نفسه انبأ تلاميذه بان العالم سيبغضهم ويحاربهم بشدة وقساوة ، ويفرغ قصارى جهده ليطفئ مصباح الحق الذي يسعون في نشر ضوئه . واننا نرى ان هذه النبوءة لم تزل تتحقق في جماعة الكاثوليك دون سواها ، وذلك من عهد الرسل حتى ايامنا هذه . اذًا فما هذا الا دليل واضح على ان الكثلكة هي الجماعة التي أسسها المسيح ووجه اليها كلامه ، في شخص تلاميذه الاولين .

٢ً يجب ان تتشبه كنيسة المسيح بجدتها ورأسها ، كل التشبه الممكن . وهذا ما يتم بكونها عرضةً للاضطهاد . فان يسوع نفسه كان هدفاً لكراهية العالم ومعارضة الخبثاء ، مع انه لم يأتِ إلا لخلاص البشر ، والاحسان الى الجميع . وكذلك كنيسته قد تعيّن عليها ان تسعى دائماً الى خير البشر ، ليس الروحي فحسب ، بل الزمني ايضاً . وهي التي تعلّم الناس ان يتحابوا ويتآخوا ويتعاونوا ، وتجتهد في تخفيف اوجاعهم ، وسدّ حاجاتهم ، ومع ذلك لها دائماً خصوم الدّاء ، يتحالفون على اهلاكها . وبمقدار ما يزيدونها بذلك مماثلة بيسوع المسيح ، يبرهنون على كونها كنيسته الحقيقية .

٣ً ان البغض الذي عنى به السيد المسيح لا سبيل الى تعليله الا بالقول : ان اصله هو روح الكبرياء والخبث الذي كان ابليس اول ابن له . فهذا الملاك الساقط هو الذي يستخدم المنافقين اعوانه كآلات لاضطهاد الكنيسة ، كما حرّك اليهود قديماً على رفض المسيح وصلبه . وقصده هو واحد في كل آن ، اي ملاشاة ملكوت الله . فلماذا لا يضطهد هو وخدامه بقية الكنائس ، كما يضطهدون الكنيسة الكاثوليكية ؟ . أليس لعلمهم ان هذه هي دون سواها ، جسد المسيح السري ، وملكوت الله على الارض ؟

٤ً لان ديمومة الكنيسة ، بالرغم من تلك المحاربة العنيفة ، وما ظهر من الجرأة والبسالة في الوف من الشهداء ، ابناء الكثلكة الذين ختموا ايمانهم بدمائهم ، انما يثبتها اعجوبتان بهيّتان ، لا ينسبهما عاقل الى القوى البشرية ، بل يقرّ ان هناك يد الله القادرة على كل شيء . فالجماعة التي لا تزال هاتان الآيتان تلمعان فيها على مرأى كل انسان ، هي موسومة بختم الهي . واذن

فهي عروس يسوع المسيح الحقيقية . وزد على ذلك ان الله لا يفتأ يجري في الكثلكة معجزات كثيرة تكميلاً لاعلان قداستها . ومن هذه المعجزات ما يحدث في بعض المزارات المشهورة التي اختارها الله لتكون مواضع التقاء للزوّار الاتقياء الآتين اليها من مختلف الاقطار . ولنا من شهادات الكثيرين على ذلك ما ينفي كل مجال للارتياب في صحتها ، وكثيراً ما يجري اطباء ماهرون فحص بعض المرضى ، الذين لم يكونوا ليشفوا من امراضهم بايّ نوع كان من المقاقير ، فيفضي الفحص الى تحقيق كون الشفاء اكيداً وتاماً ، واذن فهو باعجوبة يضطر ارباب العلم الى الاعتراف بها .

وفضلاً عن تلك المعجزات ، ان الله يصنع غيرها ايضاً ، مكافأة لايمان من يستشفعون بعض اوليائه ، الذين يشاء تعالى ان يعلن قداستهم ، ويزيد المؤمنين ثقةً بحمايتهم . ولتحقيق هذه المعجزات قد ألف الاحبار الاعظمون جمعية وكلوا اليها اتخاذ كل ما يستطاع من التدابير المفيدة لابعاد اسباب الغشّ والرياء . فتارةً يسفر البحث عن عدم ثبات بعض ما فشا خبره من الحوادث العجائبية ، وطوراً بالعكس ، فانه ينتهي بكون الاعجوبة مؤكدة ، بحيث لم يبقَ لانكارها من سبيل . وعدد ما اثبت بهذه الطريقة من الاعاجيب يحصى بالمئات بل بالالوف ، وما زال يزداد كل حين . فما هذا الا ختم الله تعالى المصدّق على بهاء فضائل قديسيه ، وقداسة كنيسته الحقيقية .

٤

رد الاعتراضات

رب قارئ يخال اليه ان ما قلناه عن غيرة المرسلين ، وتفاني من خصّصوا حياتهم لاعمال المحبة ، ليس بكافٍ لاثبات قداسة الكثلكة ، لانه يفزر مثل تلك المفاخر عند البروتستان ايضاً . فانهم نشروا رسالاتهم في نواحي المسكونة كافةً ، لا بل انشأوا من المدارس والمياتم والمستشفيات ما يفوق المؤسسات الكاثوليكية .

نعم ، ايها القارئ العزيز ، انك اذا لم تعتبر سوى كمية المال المنفقة ، وعدد

الابنية وكثرة المستخدمين فيها ، ووفرة ما هنالك من اسباب الرفاهية ، فانت صادق ؛ ان المؤسسات البروتستانية تفوق المؤسسات الكاثوليكية تفوقاً محسوساً . ولكن ، يا رعاك الله ، قابل بين الطرفين ، بالنظر الى ما يمارس فيهما من الفضائل المسيحية ، وخاصةً من التضحيات بالذات والتجرّد عن المنافع الزمنية والتسليات البشرية ، يظهر لك تفلب الكثلكة على تلك لا محالة لان الذين يشتركون في اعمال البروتستان المذكورة قلّما يحركهم اليها روح الكفر بالذات ، وان مساعيهم لا تخلو من التعلق بالاغراض الدنيوية ، وبكثرة المال . ومعلوم ان بالمال جميع اسباب الرغد والهناء ، ومع هذا ، لا سبيل للتضحية وبذل النفس . فهيهات ان يكون في رسالات البروتستان وسائر مشاريعهم شيء يدل على انهم يساوون او يسابقون الكثلكة في القداسة ، بل بالعكس . فان اختلاف الثمار التي تأتي بها كلتا الشجرتين يوضح جلياً ان حياة هذه ، اي البروتستانية ، لا تتعلق الا بالمبادئ البشرية ، اما الاخرى ، اي الكثلكة فلها حياة تفوق الطبيعة ؛ ولا يقدر على اعطائها وصيانتها سوى الروح الالهي ، الذي وعد السيد المسيح بانه يستقرّ ويعمل في كنيسته على الدوام .

الا ان بعض خصوم الكثلكة يعترضون على قداستها قائلين : ان فيها عيوباً تضاهي تماماً ما في سائر الجماعات البشرية من الشوائب . فليست اذن الكثلكة افضل واقدس مما سواها من الجماعات . ولتأييد قولهم هذا يوردون ما يخبرنا به التاريخ عن سوء سلوك بعض الاساقفة والبابوات ، ويشكون عرماً من شائبة الكبرياء ، زاعمين انها هي التي اقتادت الاحبار الرومانيين الى الادّعاء بالرئاسة على الكنيسة برمتها . ثم ينحون باللوم على رؤساء الكنيسة بانهم اعتادوا الفخفخة والرفاهية في عيشهم ، خلافاً للفقر الذي اتخذه يسوع المسيح نصيباً له ، واوصى تلاميذه بالمحافظة عليه ؛ ويذكرون اخيراً ما نجم من المعاثر عن سلوك بعض الكهنة والرهبان ، وكان الواجب عليهم ان ينيروا الجميع بضياء قداستهم . فبعد ما جمعوا كل تلك الشكاوي ، كأني بهم يهتفون هتاف المنتصر ويسألون : اين قداسة الكثلكة ؟

فنذكرهم اولاً بما قلناه في القسم الاول من هذا المقال من ان الكنيسة

هي جماعة بشرية ، خلق افرادهـا من طينة آدم ومـائه . واذن فلم يكن ممكناً ، ان يخلوا مما في الناس من الشوائب . وانه ولئن كان علمنا الرسول : « ان المسيح احبّ كنيسته وضحّى بذاته لاجلها ، لتصير جماعة كاملة كليـة الطهر » ، فهذا الكلام يدلنـا على منتهى الكمال الذي تجتهـد الكنيسة في الاقتراب منه . اماً حصولها التامّ عليه ، فلا يكون الا في الحياة الابدية .

ثانياً : نجيبهم ان كثيراً من العيوب والقبائح التي عزاها خصوم الكنيسة الى رؤوسائها واكليرسها قـد برهن التاريخ الحقيقي على عدم صحته . لذلك يجب التميز بين الصحيح منها والملفّق تلفيقاً ، مما يكتبه اولئك الخصوم بهذا المعنى ، او ينقلونه نقلاً عن روايات كاذبة ليس غايتها سوى الافتراء على الكنيسة الكاثوليكية واتهامها بالعار .

ثالثاً : اننا ننكر ما يقـال : ان البابوات يتشامخون ويطمعون في الرئاسة . فان سلطتهم العامة ليست اختلاساً . بل اولاهم اياها يسوع المسيح ، في شخص بطرس الرسول ، الذي انابه عن ذاته ، كما يتضح من المباحث اللاهوتية المتعلقة بصورة الجماعة الكنسية . فكان اذن من الواجب على الاحبار الرومانيين ان يحافظوا على تلك الولاية التي ورثوهـا من بطرس ، ولن يدرأوا عنها كل من تعصب ضدها ، من مبدعي الشيع ؛ ولو انهم اهملوا ذلك ، لما كان منهجهم هذا تواضعاً وتساهلاً ، بل جبانة وخيانة .

رابعاً : ان ما ينحي بـه الخصوم باللوم على رؤساء الكنيسة لابتعـادهم عن روح البساطة المسيحية والاقتداء بفقر الرسل ، فما كنا لننكره عليهم ، لو انهم كانوا حصروه في بعض الرؤساء . امـا وانهم اطلقوه على الجميع ، فانه مردود . وبالتالي اننا نحصره في بعضهم ، ممن لا ننكر انهم افرطوا في حب البذخ وسعة العيش . ومع ذلك فقد اتخذوا هذه الوسائط الملموسة من المجد الظاهر ليظهروا سموّ عظمتهم ، وشرف مقامهم للغير ، فيؤدّيهم الاحترام الواجب ، والاعتبار اللازم . لاسيما وان الكنيسة هي جماعة كبقية الجماعات . واذن فما دام هذا شأنها ، وجب ان تتخذ مثل هذه الوسائط لصيانة سلطـة رؤسائها . وربما كان هذا مبرراً لاولئك الرؤساء طالما كانت هذه غايتهم ، من المجد الظاهر .

غير اننا لا ننكر انه قد وجد بين الاكليروس في خلال بعض العصور ، من استسلم للشهوات والاميال البشرية السافلة ، الا انه لا يمكن لاديب عاقل ان يطلق هذه الحال على كل جماعة الكنيسة . بل لا شك في انه يحصرها في الافراد الذين تورّطوا فيها . اما الشريعة الالهية فلن تزال الكنيسة محافظة عليها شديد المحافظة ، وتنادي بوجوب الامتثال لها ، والاذعان لمبادئها المقدسة . واما تلك العيوب فمهما كثرت وقبحت نشأتها فلا يمكن ان تحجب سطوع فضائل القديسين ، ومحامد الصديقين . ويجب ان لا ننسى ان هذه تفوق جداً قيمة وكثرة ما يبدو منها لاعين الملأ . لان اصحاب التقوى يؤثرون عادةً ان يمارسوا الفضيلة ويباشروا اعمال البرّ خفيةً ، بحيث لا يطّلع على مآثرهم العجيبة سواه تعالى . ومع ذلك اذا اعتبرت ، يا هذا ، ما يرد في تاريخ القديسين من طهارة اخلاقهم ، وجمال اعمالهم ، وغزارة مواهب الروح القدس في انفسهم ، اضطررت الى الاعتراف بان اللآلئ التي ازدانت بها عروس المسيح تفوق ما لم يزل في بعض اعضائها ، من آثار الضعف ، وضروب الفساد ، التي تتلد لا محالة من الطبيعة البشرية الساقطة .

ولا يخفى ايضاً معرفة ما لا تنفك الكنيسة عن بذله من الجدّ في استئصال تلك الغراس الخبيثة . فانها لا تملّ عن تنبيه الضالّين ، وحضّ الخطأة على التوبة ، وتنظيم الرياضات الروحية ، وتحريض المؤمنين على التأملات الخلاصية ، وتنشيطهم في الصلاة وفي فحص الضمير ، وقبول الاسرار . وما هذا كله الا ملح فعّال يميت جراثيم الفساد ، ويصون الحياة الالهية ، في الآنية البشرية الواهنة .

فحبذا لو شاهدنا شيئاً من هذا الاعتناء والاجتهاد في الجماعات الغير الكاثوليكية ، بحيث يجوز الظن ان النفوس ، هناك ايضاً ، تعالج بمثل تلك الادوية الروحية ، لتبرأ من امراضها النفسانية ؛ وتترقى في سلم القداسة لتصل الى حيث تحصل الكنيسة نفسها على كمالها النهائي ، وتقام اتحادها بعريسها ، ورأسها يسوع المسيح الذي له المجد ، الى الابد . امين !